الآداب العربية في القرن التاسع عشر

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

وكانت العربيَّة في خاتمة القرن الثامن عشر لا تزال معزَّزة في انكلترَّة في كليتي كمبردج واكسفرد. وكان في اكسفرد مطبعة عربية شهيرة نُشرت فيها كتب شرقيَّة متعدّدة نخصّ بالذكر تآليف ادورد پوكوك (E. Pocock) (١٦٠٤—١٦٩١) وابنه توما. وكان ادورد رحل الى الشرق وسكن مدَّةً في حلب ثمَّ درَّس في اكسفرد ونشر تاريخي ابي الفرج ابن العبري وسعيد بن بطريق. ونال الشهرة بين الانكليز في الشرقيات في خاتمة القرن الثامن كَرْليل (J. D. Carlyle) (١٧٥٩—١٨٠٤) ساح في بلاد الشرق ثمَّ تولَّى تدريس العربية في كليَّة كمبردج. له كتاب في آداب العرب وشعرهم في الانكليزيَّة ونقل الى اللاتينيَّة قسماً من مورد اللطافة لجمال الدين ابن تغري بردي. وكذلك اشتهر معاصرهُ يوسف وَيت (J. White) (١٧٤٦—١٨١٤) من علماء اوكسفرد الذي نشر لاوَّل مرَّة كتاب عبد اللطيف البغدادي في الامور المشاهدة بمصر سنة ١٧٨٩ ثمَّ نقلهُ الى اللاتينيَّة سنة ١٨٠٠ ولهُ غير ذلك

امَّا الهولنديُّون فكانوا في ذلك العهد يمشون في درس العربيَّة على آثار اسلافهم الافاضل كغوليوس (Golius) (١٥٩٦—١٦٦٧) وارپنيوس (Erpennius) (١٥٨٤—١٦٢٤) وشولتنس (A. Schulteus) (١٦٨٦—١٧٥٠) وابنهِ جان جاك (J. J. Schultens) (١٧١٦—١٧٧٨) وكلُّهم من المبرّزين جعلوا مدينة ليدن كنار الآداب الشرقيَّة وابرزوا في مطبعتها المؤلَّفات العديدة التي اصبحت اليوم عزيزة الوجود يتزاحم العلماء في اقتنائها كتاريخ جرجس ابن المكين المعروف بابن العميد وسيرة صلاح الدين الأيوبي لابن شدَّاد وتاريخ تيمور لنك لابن عربشاه وامثال الميداني ومطبوعات اخرى جليلة. ومنَّن اشتهروا من الهولنديين في اواخر القرن الثامن عشر هيتسما (A. Haitsma) نشر سنة ١٧٧٣ مقصورة ابن دريد ونقلها الى اللاتينيَّة وذيَّلها بالحواشي. ومنهم شَيْد (J. Scheid) (١٧٤٢—١٧٩٥) نقل صحاح الجوهري الى اللاتينيَّة وألَّف كتاباً في اصول العربيَّة ونشر منتخبات ادبيَّة شتَّى

واشتهر من النمساويين في نهاية القرن الثامن عشر في درس الآثار الشرقية فرنسوا دي دومباي (F. de Dombay) (١٧٥٦—١٨١٠) نشر تاريخاً للعرب ثم انقطع الى درس احوال مرّاكش فابرز عدّة آثار مختصّة بتلك البلاد كتاريخ ابن ابي زرعة وتقود مرّاكش وغير ذلك . واصاب الكاهن جان ياهن (J. Jahn) (١٧٥٠—١٨١٦) شهرة في تدريس اللغات الشرقية في ڤينة ولهُ من التآليف غراماطيق عربيّ ومعجم عربي لاتيني وبحاثٍ ادبيّة

وكان الدنيمركيّون ايضاً قد وجّهوا انظارهم الى الشرق فاشتهر منهم في آخر القرن الثامن عشر نيبوهر (C. Niebhur) (١٧٣٣—١٨١٤) الذي طاف في انحاء جزيرة العرب ودوّن ملحوظاتهِ واخبار رحلتهِ في ثلاثة مجلّدات اضاف اليها مقالات حسنة في عادات الشرق واحوالهِ . ومنهم جرج زويغا (G. Zoëga) (١٧٥٣—١٨٠٩) خرج من بلاد دنيمرك وتوطّن رومية العظمى وصار كاثوليكيًّا وانقطع الى درس الآثار الشرقيّة لاسيما آثار مصر

ولم ينطفئ منار العلوم الشرقية بين الاسبانيين والبرتغاليين وخصوصاً الرهبان . ومِمَّن عُرف منهم الراهب الفرنسيسي كانيس (Fr. Canes) (١٧٣٠—١٧٩٥) عاش مدّةً في فلسطين والشام ودرّس العربية لمرسلي رهبانيّتهِ وقد صنّف كتباً مدرسيّة في الاسبانيّة لتعليم العربيّة . اخصُّها غراماطيق ومعجم المفردات ومختصر التعليم المسيحي . وفي عهدهِ كان الراهب حنّا سوزا (J. Souza) (١٧٣٠—١٨١٢) ولد في دمشق من ابوين برتغاليين وتخرّج على يد المرسلين ثمّ رحل الى وطنهِ ودخل الرهبانيّة الفرنسيسيّة وعلّم اللغة العربية في لشبونة . ومن مطبوعاتهِ كتاب الالفاظ البرتغالية المشتقّة من العربية . وكتاب نحو العرب ونصوص عربية لمؤرخي العرب في امور البرتغال

وكذلك الايطاليّون فانّهم لم يسهوا عن درس لغات الشرق وآثارهِ فربح منهم شكر العموم غريغوريو روزاريو (R. Gregorio) الكاهن البالرمي (١٧٥٣—١٨٠٩) الذي تفرّغ لدرس آثار صقلّية وتاريخها واحوالها لاسيّما في ايّام العرب فالّف في ذلك التآليف الواسعة في عدّة مجلّدات ضخمة نخصّ منهـا بالذكر كتابهُ « الآثار العربية في تواريخ صقلّية » ضمّنهُ كتابات ونقوشاً واوصافاً غاية في الفائدة — وعُرف الكاهن الرحّالة ج . ماريتي (G. Mariti) (١٧٣٦—١٨٠٦) زار بلاد فلسطين والشام

ومصر ودوَّن اخبار رحلته وعنها نقلنا في المشرق (٨ : ١٥١ و ٤٠١) وصفهُ لدير القلمة وكذلك كتب في تاريخ الصليبيين وغير ذلك

ولا يجوز لنا في هذا النظر الاجماليّ عن حالة العلوم الشرقية في ختام القرن الثامن عشر أن ننسى ما كان لمواطنينا من الفضل في نشر الآداب الشرقية في اوربَّة : فان ذلك القرن هو قرن السماعنة الذين أُشير اليهم بكل بنان فصار اسمهم مرادفًا للنشاط في تذليل العقبات واحياء مفاخر الشرق. اوَّلهم وامامهم المونسنيور يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ — ١٧٦٨) رئيس اساقفة صور صاحب المكتبة الشرقية وتآليف أُخرى لا تُحصى(١ . ثمَّ اسطفان عوَّاد السمعانيّ نسيبهُ (١٧٠٩ — ١٧٨٢) . ثمَّ يوسف لويس السمعاني (١٧١٠ — ١٧٨٢) ثمَّ شمعون السمعاني ١٧٥٢ — ١٨٢١) وكان كلّ هؤلاء تلامذة المدرسة المارونية في رومية واثمارًا طيِّبةً من دوحتها الفاخرة تُعدّ تآليفهم بالمئات بين مطوَّلة وقصيرة . وكان معظم اهتمامهم في نشر الآثار السريانية لكنَّهم ايضًا اخرجوا من زوايا النسيان عدَّة تآليف عربية لاسيما في التاريخ والمآثر الدينية والادبية . وسنعود الى ذكر الاخير منهم الذي يدخل في دائرة مقالتنا اذ لم يمت الَّا في العشر الثاني من القرن التاسع عشر . ومن هؤلاء الشرقيين الذين شرَّفوا الآداب في اواخر القرن الثامن عشر القس ميخائيل الغزيريّ وهو ايضًا من تلامذة الآباء اليسوعيين في المدرسة المارونية رافق السمعاني وحضر معهُ المجمع اللبنانيّ سنة ١٧٣٦ ثمَّ درَّس اللغات الشرقيَّة وتعيَّن ترجمانًا لملك اسبانيا كرلوس الثالث ومن اعماله الاثيرة وصف المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال قرب مجريط وهذا التأليف مجلَّدان كبيران يدلَّان على سعة معارف صاحبهما طُبعا من سنة ١٧٦٠ الى ١٧٧٠ باللاتينيَّة والعربية — واشتهر منهم ايضًا في ڤينَّة عاصمة النمسا الخوري انطون عريضة الطرابلسي وعلَّم فيها اللغات الشرقية ولهُ من التآليف كتاب علم صرف العربيَّة ونحوها وضعهُ لتلامذته في اللاتينية وطبعهُ سنة ١٨١٣ في ڤينَّة

وفي هذا النظر العمومي كفايةٌ ليعرف القرَّاء حالة الدروس العربية في منتهى

---

١) اطلب ترجمتهُ وجدول تآليفهِ في برنامج اخريَّة القديس مارون للاديب يوسف لقندي خطَّار غانم (ص ١٠٥ — ١١٣) . اطلب ايضًا كتاب سفر الاخبار في سفَر الاحبار للخوري يوسف الدبس (٢٠٩ — ٢١١)

القرن الثامن عشر وانما يترتب علينا الآن ان نقتص آثار الكتبة الذين زينوا الآداب بجلية معارفهم واغنوها بثمرات اقلامهم ومصنفاتهم وانا نقسم ذلك فصولاً ليسهل على المطالع تتبع التفاصيل التي نثبتها فيحرزها دون عناء ويعرف ما لكل كاتب من المزايا والاعمال

٣ الآداب العربية في غرة القرن التاسع عشر الى السنة ١٨٣٠

كان افتتاح القرن التاسع عشر في أيام السلطان الغازي سليم خان الثالث وكان من افضل ملوك عصره دمث الاخلاق مغرماً بالاداب محباً للترقية رعاياه في معارج الفلاح. ثم صار الملك الى ابن اخيه السلطان مصطفى خان الرابع الذي لم يملك اكثر من سنة فضبط من بعده سنة ١٨٠٨ زمام السلطنة اخوه محمود خان الثاني فطالت مدتهُ وكان كالسلطان سليم هائماً بترقي شعبه ساعياً في اسباب نجاحه في فنون الآداب وللشاعر نقولا الترك قولهُ يوم جلوسه:

تولى التخت سلطان البرايا وايدهُ الالهُ بمرتقاهُ
فصاح الكون لما ارخوهُ نظام الملك محمودٌ جاهُ

ومن مساعي السلطانين سليم ومحمود المشكورة تعزيزهما لفن الطباعة في دار السعادة فطُبعت فيها عدة تآليف عربية فضلاً عن المصنفات التركية . ويبلغ عدد المصنفات العربية التي نُشرت بالطبع في هذه الثلاثين سنة نيفاً واربعين كتاباً كقاموس المحيط للفيروزابادي (١٨١٤) مع شرحه في التركية وكحاشية السيلكوتي على مطول التفتازاني (١٨١٢) ومراح الارواح لاحمد بن علي بن مسعود مع مجموع تآليف أخرى نحوية وصرفية (١٨١٨) وكافية ابن حاجب (١٨١٩) وغير ذلك مما مرَّ لنا ذكرهُ في مقالتنا عن فن الطباعة في الاستانة (المشرق ٣: ١٧٤ــ ١٧٩) وفي ملحق تاريخ تركيا للمؤرخ الالماني هامر (J. de Hammer) جدول هذه المطبوعات كلها في ٩٧ عدداً (اطلب الجلد ١٤ ص ٤٩٢—٥٠٧) . وكان الولاة يساعدون السلاطين العظام في ادراك غايتهم الشريفة في جهات المملكة كسليمان باشا في عكا ويوسف باشا كنج في دمشق وداود باشا في بغداد وغيرهم

وكذلك في مصر كان محمد علي باشا راغباً في نشر المعارف فاستعاد الادوات الطبعية التي كان الفرنسويّ مرسال اتخذها في أيام بونابرت وانشأ مطبعة بولاق الشهيرة

سنة ١٨٢٢ وكان اوّل كتاب طُبع في تلك السنة قاموس ايطاليانيّ عربيّ وأُردف في السنة التالية بكتاب قانون صباغة الحرير. ومطبوعات بولاق الى سنة ١٨٣٠ تربي على الخمسين في اللغات الثلاث العربيّة والتركيّة والفارسيّة (١ الّا انّ الكتب العربيّة المهمّة لم تُطبع الّا بعد هذه المدّة وانّما جُدّدت في الغالب المطبوعات المنشورة قبلًا في الاستانة

وما يُقال اجمالًا في هـذا القسم الاوّل من القرن التاسع عشر انّ الذين اشتهروا فيه كانوا ابنـاء انفسهم لم يتعلّموا في مدارس منظّمة بل نبغوا بشغلهم الخاصّ تحت نظارة بعض الافراد الذين سبقوهم في دواوين الكتابة ودوائر الانشاء.

ونبتدئ هنا بذكر الكتّبة الذين خصّوا نفوسهم في تصنيف التاريخ فنقول: انحصر التاريخ بين ادباء المسلمين في بعض الافراد الذين لا يتجاوز عددهم اصابع اليد فذكرنا منهم (ص ٢٤٤) الشيخين عبد الله الشرقاويّ وحسين ابن عبد الهادي. ومنّ يضاف اليهما السيّد اسماعيل بن سعد الشهير بالخشّاب المتوفى في ٢ ذي الحجّة سنة ١٢٣٠ (١٨١٥) كان مولعًا بالدروس الادبيّة واخبر الجبرتي في تاريخه (٤: ٢٣٨) «انّ الفرنساويّة عيّنوه في كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه كلّ يوم لانّ القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليوميّة في جميع دواوينهم واماكن احكامهم ثمّ يجمعون المتفرّق في ملخّص يُرفع في سجلّهم بعد ان يطبعوا منهُ نسخًا عديدة يوزّعونها في جميع الجيش حتّى لمن يكون منهم في غير المصر من قرى الارياف فتجد اخبار الامس معلومة للجليل والحقير منهم. فلمّا رتّبوا ذلك الديوان كما ذُكر كان هو المتقيّد برقم كلّ ما يصدر في المجلس من امر او نهي او خطاب او جواب او خطأ أو صواب وقرّروا لهُ في كل شهر سبعة آلاف نصف فضّة فلم يزل متقيّدًا في تلك الوظيفة مدّة ولاية عبدالله جاك منو (Menou) حتى ارتحلوا من الاقليم» فهذه كما ترى جريدة يوميّة وهي اوّل جريدة ظهرت في العربيّة وكان الجبرتي رأى منها عدّة كراريس. وذكر ايضًا لاسماعيل الخشّاب ديوان شعر صغير الحجم جمعهُ صديقهُ الشيخ حسن العطّار

واشهر من هؤلاء في التاريخ العلّامة عبدالله بن حسن الجبرتي وُلد في مصر ١١٦٧ (١٧٥٣–١٧٥٤) كما ذكر في تاريخه (١: ٢٠٣) وروى هناك بعض ما حدث

(١ اطلب المجلّة الاسيويّة الفرنسويّة (Journ. As. 1843, II, 31–38)

لهُ في صباه وكان من طلبة الازهر . جعلهُ بونابرت من كتبة الديوان فاحرز لهُ عند الجميع اسماً طيباً . وانقطع الى الكتابة والتأليف . وفي آخر حياتهِ قُتل احد اولادهِ في حي شبرا فبكاهُ بكاء مرًّا افقدهُ البصر ولم يلبث ان تبعهُ في القبر . وقال كاتب فهرست مخطوطات المكتبة الخديويَّة (٥ : ٨٣) انهُ توفي مخنوقاً في رمضان سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢) . وقد جعل المسيو هوارت في تاريخ الآداب العربيَّة (١ مولدهُ سنة ١٧٥٦ ووفاتهُ سنة ١٨٢٥ وفي كليهما غلط . لما تاريخهُ فيدعى عجائب الآثار في التراجم والاخبار ضمّنهُ حوادث مصر التي جرت في اواخر القرن الثاني عشر واوائل الثالث عشر جاريًا في ذلك على سياق السنين منذ فتوح السلطان الغازي سليم خان الاوَّل للقطر المصريّ الى غاية سنة ١٢٣٦ ذاكرًا للوقائع المعتبرة مع تراجم الاعيان المشهورين وقد ادخل فيهِ قسماً كبيرًا من تاريخ آخر وصف فيهِ وقائع بعثة بونابرت الى مصر دعاهُ « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » كتبهُ سنة ١٢١٦ (١٨٠٢) . وتاريخ الجبرتي قد نُقل الى الفرنسيَّة منذ عهد قريب بهمَّة بعض افاضل نصارى مصر وهم شفيق منصور بك وعبد العزيز كحيل بك وجبرائيل نقولا كحيل بك واسكندر بك عمون . وقد ترجم الفرنسوي كردين (A. Cardin) تأليفهُ الآخر مظهر التقديس

وممَّن كتبوا في التاريخ الشيخ ابو القاسم بن احمد الزيَّاني كان من عمَّال مراكش متولّيًا على مدينة وجدة . ثمَّ اعتزل الاشغال في تلمسان وألَّف سنة ١٨١٣ كتاب الترجمان المعرَّب عن دُول المشرق والمغرب طبع منهُ الاستاذ هوداس (O. Houdas) الفرنسويّ قسماً منهُ يتناول تاريخ مرَّاكش من السنة ١٦٣١ الى ١٨١٢ . والباقي لا يزال مخطوطاً . ولهُ كذلك كتاب البستان الظريف في دولة مولاي عليّ الشريف »

وللكتبة النصارى في هذه الاثناء بعض التواريخ يترتَّب علينا ذكر اصحابها . واوَّل من اشتهر في ذلك القس حنانيا المنيَّر احد رهبان الرهبانيَّة الحنَّاويَّة الشويريَّة . ولد المذكور في زوق مصبح سنة ١٧٥٧ . وترهَّب سنة ١٧٧٤ . لما بقيَّة اخبارهِ في الرهبانيَّة فلا نعلم منها شيئاً كما اننا نجهل سنة وفاتهِ . ومما يظهر من مآثرهِ ومصنَّفاتهِ انهُ كان رجلًا اديباً كثير الاطلاع سليم الذوق نشيطاً في جمع الآثار والاخبار عارفاً بفنون الكتابة يُحسن النثر والشعر . وكان ذلك نادرًا في زمانهِ . وقد نصَّ هو في كتابٍ لهُ

(١) اطلب (Ch. Huart: *Littérature arabe*, 415-416)

عن الدروز بالطبيب ما يدلّ على انهُ كان يتعاطى الطبّ. امّا اخصُّ تآليفهِ فتاريخان الاوّل مدنيّ سبق لنا وصفهُ في المشرق (٤: ٤٢٨ و ٩٧٢) وهو تاريخ الدرّ المرصوف في حوادث الشوف أثبتنا منهُ مقدّمتهُ وبعض فقراتهِ. وهذا التأليف يتناول الوقائع التي جرت في لبنان من السنة ١١٠٩ ه. (١٦٩٧ م) عند ظهور الامراء الشهابيين الى السنة ١٢٢٢ ه (١٨٠٧ م) وهو يتّسع خصوصاً في حوادث الجبل والساحل في الاربعين السنة الاخيرة. وهذا التاريخ قد استفاد منهُ الامير حيدر الشهابيّ في تاريخهِ الشهير المعروف بالغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان والشيخ طنُّوس الشدياق في كتاب تاريخ الاعيان في جبل لبنان

امّا التاريخ الثاني فهو تاريخ دينيّ قد جمع فيهِ المؤلف اخبار الرهبانيّة الحنّاويّة منذ اواسط القرن الثامن عشر الى نهاية السنة ١٢١٩ ه (١٨٠٤ م). وليس هذا التاريخ كلهُ دينيًّا فانّ فيهِ ايضاً اموراً عديدة تختصّ باخبار الامراء واحوال لبنان وبلاد الشام والقطر المصريّ. والكتاب عبارة عن ٢٠٠ صفحة تقريباً وكلا التاريخين نادر قد امكننا الحصول على نسخة منهما فاستنسخناهما لمكتبتنا الشرقيّة. ولابن المنيَّر ذلك من التآليف الشعريّة والادبيّة نذكرها في باب الأدب (لهُ بقيّة)

اثر جديد لأعمال القديس جرجس الشهيد

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعيّ

كتبنا في المشرق (٦: ٣٨٥ و ٥٢٦) مقالة عن القديس جرجس الشهيد العظيم في نسبة المئة الثالثة عشرة من استشهادهِ وقلنا هناك انّ غاية ما يُعرف من امر هذا القديس انهُ مات شهيداً في عهد ديوقلطيانوس قيصر في اوائل القرن الرابع للمسيح. ثمّ اثبتنا ملخّص قصّتهِ الشائعة في سوريّة وما بين النهرين وقتلهُ للتنين في بيروت. لكنّ لهذا القديس قصّة أخرى مختلفة جدًّا عمّا روينا سابقاً تجدها مسطّرةً في سنكسار الاقباط. ولهم في ذلك خطبة يتلونها يوم عيدهِ في ١٨ برمهات دوّنّاها في المشرق (٦: ٣٩٣) وفي هذه الخطبة اشارة الى عجائب ومعجزات كلها من الغرابة في مكان. وممّا يجدر بنا ذكرهُ انّ القصّة كما هي مزبورة في تلك الخطبة قد شاعت بين العرب فرواها احد قدمائهم مؤرّخيهم المعدودين وهو ابن جرير الطبري في تاريخهِ